الفصل السابع

أبناء الغرب توصّلوا إلى الحلّ النهائي

الإقبال الغربي على الإسلام

تتحدث الصحفية الأمريكية ديبورا بوتر التي اعتنقت الإسلام عن قناعة المسيحيين الغربيين بالإسلام وحتمية توصلهم إلى اعتناقه وتقول:

"إن الناس في أوروبا وأمريكا يُقبِلونَ على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة لأنهم متعطشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي بل إن عدداً من المستشرقين والمبشرين النصارى الذين بدؤوا حملتهم مصممين على القضاء على الإسلام وإظهار عيوبه المزعومة ، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين ، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامغة لا سبيل إلى إنكارها"

والقرآن يبين لكم الحق وإن عيسى عليه السلام بشر، وإنه رسول الله إلى بني إسرائيل، وإن رسالته كانت الدعوة إلى توحيد الله وبيان أن ذاته سبحانه وتعالى ليست بمركبة، وليست صفاته مشابهة، وأن يتنزه عن الولد. قال الله تعالى: {ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولاتقولوا ثلاثه. انتهوا خيراً لكم. إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} (سورة النساء الآية 170) {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا. أن دعوا للرحمن ولدا. وماينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا} سورة مريم الآيات 88 - 92.

وقوله تعالى {مالمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسول وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون} سورة المائدة الآية 75.

فقد قرن الله لفظ المسيح بأمه ((ابن مريم)) ليلفت الأنظار بأنه ابن مريم لا ابن الله. وبيّن أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام، ومن أكل الطعام تحول الطعام في جسمه دماً ولحما وعظماً، وينضح عرقاً، ويخرج فضلاته التي لو بقيت في الجسم لأضرته.

وكما قال بحق الدكتور عبد الحليم محمود _ في كتابه _ التفكير الفلسفي في الإسلام: إن كائناً من هذا النمط لا يمكن إلا أن يكون بشراً خاضعاً لكل القوانين البشرية التي لاتؤدي إلى نقص في مرتبة كرسول ، ويصور القرآن محكامة مقبلة _ يوم القيامة _ تبرئ عيسى مما ألصقه به أتباعه من التثليث وتدينهم فيقول الله تعالى:

(وإذا قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق ن كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسي ولاأعلم مافي نسك إنك أنت علاّم الغيوب. ماقلت لهم إلا ماأمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) سورة المائدة الآيات 116. 118.

تصاعد التدين الإسلامي في الغرب

إن غالبية المواطنين العرب المسلمين أثناء إقامتهم في بلدان الغرب يصبحون أكثر تعصباً لدينهم أو لقوميتهم، وأحياناً أكثر تديناً. وهذه ظاهرة صحّية تدل على عظمة الإسلام وعلى قوّة رسوخه في النفوس وفي القلوب . فقد اعتدنا نحن السوريون بأن نستقبل حجاج بيت الله الحرام، وقد تغير سلوكهم العام كأفراد، فأصبحوا أكثر التزاماً بقواعد الإسلام، وأكثر تديناً. والحقيقة أن الذين يعودون من أوروبا أيضاً، يأتونا أكثر تديناً والتزاماً مما كانوا عليه قبل هجرتهم إليها. ويلاحظ أيضاً بأن الجيل الثاني والثالث من العرب أو المسلمين حافظ على التزامه بالانتماء اللغوي والإسلامي والعربي.

إن ثمة أسباباً عديدة تجعل المسلم أكثر تديناً أثناء إقامته في الغرب، ومن هذه الأسباب:

- امتلاكه حرية كافية للاعتقاد والتمذهب والتدين والتعبير عن نفسه، وهذه الحرية ربما لم تكن متاحة له في بلده الأصلي. فقد تظاهر المسلمون واحتجّ الكثير منهم لقضايا منع الحجاب في المدارس العامة في بريطانيا، وقبل ذلك حدثت

أزمة كبيرة بسبب قصة حجاب فتاتين مسلمتين في فرنسا. ولو أن هذه القضايا حدثت في بلد إسلامي لما استطاع المسلمون الاحتجاج لأجلها.

- يرى سكان الأحياء والمدن البعيدة عن باريس أن الإقامة في باريس جنون وسرعة وضجر وعقد تتعب الأفراد وتضنيهم. وهذه حقيقة في تلك المدن، وهي غريبة وجديدة على مواطننا المهاجر الجديد. وكردة فعل على ذلك الصخب الكبير يعود المسلم إلى دينه وعبادته التي تمنحه الثقة والراحة والطمأنينة،وبذلك يعود إلى هويته الأصيلة.

- قد يتعرض بعض المسلمين لانتقادات عنصرية من أبناء الغرب، وفي تلك الحال لن يجد المسلم ردة فعل على تلك الانتقادات أفضل من التدين والالتزام بالإسلام وسيكون الإسلام نفسه الهوية التي ينتمي هو إليها في الأصل والهوية التي منحه إياها ذلك الغربي العنصري.

- في حالات قليلة ولأسباب مشابهة لتلك يتطور هذا الانتماء الإسلامي عند البعض ليصبح انتماءً إسلامياً حركياً.

تغيير وجه أوروبّا

إنّ أوروبا هي الآن في مرحلة تغيير كبير لا مثيل له على الإطلاق، وهذا التغيير لايعادله إلاّ تغيير واحد عرفه تاريخ العالم من قبل. وهو الذي حدث في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، حيث كانت تتحوّل شعوب وأمم وقوميات بأكملها إلى الديانة الجديدة. ستتغيّر أوروبا بسرعة مذهلة، وتقوم بالتخلي عن معتقداتها السابقة. وإنّ عالم الغرب بكلّ أركانه يدرك اليوم هذا التغيير المحتمل. ويعمل بمقتضاه، فالانتخابات الرئاسية الفرنسية 2007 سارت وفق مقتضيات هذا التغيير، وأولئك الذين تحمسوا لاختيار ساراكوزي إنما اختاروه لأجل شعاراته التي تبين منها بأنه سيتصدى بقوة لظاهرة ازدياد المدّ الإسلامي. لكن الأسباب والعوامل التي تجعل أوروبا تزحف حثيثاً نحو الإسلام تلك لا يستطيع لا ساراكوزي ولا غيره بأن يوقفها. ومن ملامح هذا التغيير، اعتقاد نسبة كبيرة من أفراد الغرب بعدالة القضية العربية، وبأحقية الدين الإسلامي، وانتشار التحوّل إلى الإسلام. وسينتج عن ذلك كله في المستقبل القريب ضغوط على الحكومات الغربية باتخاذ مواقف مناصرة للعرب والمسلمين. وعندئذ سيتغير وجه أوروبا بالكامل.

تفهّم اجتماعي غربي للإسلام

في المجتمع الغربي اليوم إقبال كبير على الإسلام ويتخذ هذا الإقبال عدة أشكال، فمنها دراسة اللغة العربية والتعرف على الإسلام، ومنها دراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي والتخصص به في المراحل الجامعية والعليا، ومنها اعتناق الإسلام والايمان به.

إذ تقبل أفواج كبيرة على اعتناق الإسلام كقرار فردي توصل إليه الشخص دون أن يقوم أي مسلم بتعريفه على الإسلام أو بدعوته. كما يقبل أبناء الغرب المسيحيين في السنوات الأخيرة وبكثرة على التخصص بدراسات جامعية تتعلق بالإسلام وبالعربية وتأمل حكومات الغرب أن يقوم هؤلاء بإصلاح الفكر الإسلامي المتطرف، وبأن يصبحوا أساتذة للدين الإسلامي يتوزعون في بلدان العالم الإسلامية.

وباختصار فمن المرجو منهم أن يقوموا بتشويه الفكر والفقه الإسلامي، لكنّ ذلك لن يتمّ بالطبع لأنهم ما إن يدرسوا الإسلام ويتعمّقون بعلومه حتى يدخل الإيمان إلى أعماق قلوبهم ويصبحون مسلمين عاملين على ما يفيد الإسلام وأهله. وقد حدث مثل ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين إذ أقدم الكثير من المستشرقين الغربيين على اعتناق الدين الإسلامي ومناصرة أهله.

الإيمان المسيحي والإيمان الإسلامي

عندما يتوقف الناس عن الإيمان بالله فإنهم لا يؤمنون بلا شيء بل يؤمنون بأيّ شيء.

هناك عَلمانية قصوى تهيمن في أوروبا، خصوصا بين نخبها، لدرجة أن المسيحيين المؤمنين يُعتبرون في نظر المراقبين والأفراد مختلين عقلياً وغير قادرين على الاضطلاع بمسؤوليات الشأن العام. ولقد تم في سنة 2005 منع "روكو بوتيغليون"، وهو سياسي متميز، من تولي منصب عضو في اللجنة الأوروبية عن إيطاليا بسبب آرائه المتحفظة حول المثلية الجنسية. وإن هناك تصاعداً لعَلمانية صارمة معادية للمسيحية بالتوازي مع تزايد فراغ الكنائس: ففي لندن يقدر الباحثون أن المساجد

تستقبل يوم الجمعة من المسلمين أكثر مما تستقبل الكنائس من المسيحيين يوم الأحد" على الرغم من كون المدينة تضم من المسيحيين أكثر بسبع مرات مما تضم من المسلمين.

وإنه بقدر ما تبدو المسيحية أكثر شحوباً وامتقاعاً" بقدر ما يبدو الإسلام أكثر جاذبية وإقناعاً - ولقد أعطى الأمير شارل مثالاً معبراً عن الجاذبية التي يمارسها الإسلام على العديد من الأوروبيين. ومن المحتمل أن تشهد أوروبا عدداً كبيراً من حالات اعتناق الأوروبيين للإسلام في المستقبل" ذلك لأنه، كما تؤكد هذه المقولة المنسوبة إلى "ج.ك.شيستيرتون" : "عندما يتوقف الناس عن الإيمان باللّه" فإنهم لا يؤمنون بلاشيء، بل يؤمنون بأي شيء "

الاندحار الديمغرافي الأوروبي

كنتيجة حتمية لانتشار العقائد الدينية المعقدة في الغرب كانت الضريبة فادحة يدفعها أبناء الغرب ومجتمعاته، ومن بين هذه الضرائب ظاهرة الاندحار الديمغرافي الغربي. فالغرب بحاجة ماسة لليد العاملة، وفي الغرب مساحات هائلة الوسع وخصبة تنتظر من يقطنها ويستغلّ عطاءاتها. ولذلك فالغرب مضطر حتماً لقبول المهاجرين المسلمين، وفي قارات وزارة الهجرة الكندية أعلنت عن رغباتها باستقطاب عرب مسلمين لما يتمتعون من مواصفات جسمية ودينية تمنع عنهم أمراض السيدا.

تشير العديد من الإحصائيات إلى ظاهرة تسمى موت اليهود، وتدلّ هذه التسمية على التناقص المستمر ليهود العالم ويتنبأ الباحثون الديمغرافيون اليهود وغيرهم بانقراض اليهود في نهاية هذا القرن تقريباً. وبالنسبة للأوروبيين ككل تشير الدراسات الديمغرافية الأوروبية الى تناقص مستمر في عدد الأوروبيين المسيحيين وتزايد عدد المسلمين هناك. ويطلق البعض على هذه الظاهرة تسمية **الاندحار الديمغرافي** الذي يشير بدوره إلى أن أوروبا تتأسلم. فالنسبة العامة للخصوبة تتأرجح حول 4.1٪ لكل امرأة، بينما الحفاظ على شعب ما يقتضي نسبة تفوق قليلاً طفلين لكل زوجين أو 1.2٪ لكل امرأة. والنسبة الحقيقية لا تمثل حالياً إلا ثلثي

هذه النسبة المفترضة. إن ثلثاً ضرورياً لا يولد بكل بساطة في أوروبا. ومقابل ذلك انتبه الغرب إلى ارتفاع نسبة الإنجاب عند المسلمين الأوروبيين، فقد قال نيكولا ساركوزي في حملته الانتخابية مهاجماً المسلمين وذو الأصول العربية: انّ هؤلاء يكثرون الأولاد كالمفارخ بغية الحصول على التعويضات العائلية. ومن أجل تفادي انهيار ديمغرافي تام، مع كل الشرور التي يستتبعها ذلك وخصوصاً غياب عاملِين لتمويل برامج التقاعد السخية فإن أوروبا في حاجة إلى استقطاب مهاجرين جدد، وإلى عدد كبير جداً من المهاجرين ويجب ألا تقلّ نسبته عن الثلث الذي تفتقده أوروبا بسبب تضاؤل الخصوبة فيها. وهذا الثلث المستورد لن يكون بدون شك إلا من المسلمين في غالبيته، والسبب في ذلك في جزء كبير منه هو أن المسلمين قريبون جداً من أوروبا. وكذلك بسبب أن العلاقات الاستعمارية لا زالت تربط آسيا الجنوبية مع بريطانيا العظمى والدول المغاربية مع فرنسا" كذلك بسبب انتشار العنف والطغيان والفقر في العالم العربي والإسلامي الحالي والتي تتسبب في أمواج مهاجرة لا تتوقف. وإن نسبة الخصوبة المرتفعة لدى المسلمين تعوّض نقص الأطفال لدى الأوروبيين.

أوروبا مفتوحة أمام الإسلام

أدلّة كثيرة تبين أن أوروبا سوف تتأسلم، وأنها سوف تخضع أو تعتنق الإسلام بدون مقاومة كبيرة، ذلك لأن الطبق الإسلامي يتوافق بالكامل مع ما تشتهيه أوروبا.

وتتكامل الصورة المشوّهة لأوروبا عند أسلمتها: فضعف التدين لدى أوروبا يعوّضه قوة تدين في الإسلام، والضعف في الاعتزاز بالهوية وبالثقافة لدى الأوروبيين، تقابله قوة انتماء وشعور بالرفعة لدى المسلمين. وأوروبا اليوم باب مفتوح يقتحمه المسلمون بكامل الحرية، هذه هي الحقيقة التي يعبّر عنها الكثيرون اليوم، لكن آخرين يرون عكس ذلك، وهؤلاء هم غالباً من المتعصبين الغربيين، فالمحلل الأمريكي رالف بيتيرس يستبعد هذا الاحتمال ويرى بأن المسلمين سيتعرضون للإبادة في أوروبا قريباً.

ونحن لن ننتظر سنوات أخرى لنعرف ما سيحدث، لأن الحقائق شديدة الدلالة

والتأكيد على أسلمة أوروبا ولأن لا مجال لحدوث إبادة للمسلمين فيها كما يتصوّر البعض.

بوّابات الإسلام إلى أوروبا

يدخل الإسلام في هذا العصر إلى أوروبا عن طريق بوابات عديدة واسعة ومفتوحة بالكامل أمام الدين الحق. وعبر هذه البوابات يصل الإسلام بسهولة ويسر إلى أي أوروبي يريد التعرف عليه والتأمل به.

البوابة الأولى: وهي الإسلام التركي العلماني الواعي والمتفهم للحضارة العالمية المعاصرة. والخالي تقريباً من العنف والجهادية. والإسلام التركي قريب من أوروبا من حيث جغرافية تركيا الملاصقة للدول الأوروبية. وقريب من حيث العدد الكبير للجالية التركية المستوطنة في دول الغرب وفيها جماعات إسلامية تتبع إيديولوجياً للفكر السياسي الديني عند الجماعات التركية.

البوابة الثانية: منطقة المغرب العربي القريبة جداً من أوروبا والتي تمتلك جالية إسلامية كبيرة في دول الغرب، ويتبع هؤلاء فكرياً وثقافياً لدولهم الأمّ.

البوابة الثالثة: المسلمون الأوروبيون،الذين هم من أصول عربية وباكستانية وغيرها. وهؤلاء يحافظون على قضايا بلدانهم الأصلية ويقومون بدور التعريف بالإسلام والدعوة لاعتناقه.

البوابة الرابعة: الإسلام الشيعي الإيراني، ويذكر هنا بأن إيران الإسلامية تمتلك مخططات عمل لتوسيع مناطق نفوذ الإسلام في العالم، وهي تخصص لذلك مبالغ كبيرة من المال. وترسل العلماء والدعاة والمتخصصين بالدعوة إلى أوروبا وغيرها. ويذكر على سبيل المثال أنّ عدد أفراد الديبلوماسية الإيرانية في دولة الفاتيكان يبلغ ثمانين شخصاً. وهذه أكبر بعثة ديبلوماسية في الفاتيكان، مما يدلّ على جدّية إيران في الحوار الإسلامي المسيحي والحوار الحضاري مع الغرب وأبنائه.

البوابة الخامسة: الإعلام بأنواعه والإنترنت. وهذا الإعلام الذي أشاع الفكر الإسلامي ونشره للعالم كله، فأصبح في متناول الجميع.

البوابة السادسة: المسلمون الجدد من أبناء الغرب، وهؤلاء يعتبرهم الغرب أكبر خطر يهدد كيانه وهم الذين سيقومون بتغيير كل أوروبا، ويزداد عددهم بشكل كبير كلّ يوم. وهؤلاء هم الوحيدون الذين لا تقدر أوروبا اليوم على إيقاف نشاطهم أو إيقاف تفكيرهم عن العمل.

البوابة السابعة: الغرب نفسه بكل نشاطاته: فالغرب كله، بكل خطاباته ونشاطاته أصبح أحد أهم السبل الرئيسية التي تؤدي إلى أسلمة أوروبا. حتى عندما يكون الخطاب معادياً للمسلمين في غرضه ومحتواه فهو يؤدي دوراً إيجابياً في أسلمة أوروبا، فعندما أعلن أحد النواب الهولنديين عن مطالبه بحظر القرآن الكريم في هولندا، فإن إعلانه يحفّز الهولنديين على التساؤل والتعرف على هذا الكتاب الذي يطالب نائب برلماني بحظر تداوله.

البوابة الثامنة: مؤتمرات ولجان الحوار بين الشرق والغرب، ومهما تعددت أشكال الحوار فإنها تفضي في النهاية إلى أسلمة بعض المحاورين الغربيين، وقد حدث ذلك مرات كثيرة.

البوابة التاسعة: رجال التبشير والاستشراق: وقد تبين بأن قسماً كبيراً منهم وبعد تعرفهم على الإسلام وعقائده وشرائعه يعتنقون الإسلام ويعلون من قيمه وشرائعه.

كوسوفو: دولة مسلمة في قلب أوروبا

مع استقلال كوسوفو تم الإعلان عن ميلاد أمّة إسلامية في أوروبا تبلغ فيها نسبة المسلمين حوالي تسعين في المئة، بيد أنَّ الإسلام لا يمارس اليوم أي نفوذ على الحياة السياسية هناك. ويرى المحللون بأن كوسوفو هي اليوم مشروع قومي وليس دينياً. وبالعودة قليلاً إلى الوراء، نتذكر المذابح العرقية التي ارتكبها الصرب بحق الكوسوفيين. والمحرقة التي أبادوا فيها عشرات الآلاف من الأبرياء ، الأطفال والنساء والشيوخ. وقد أبيدوا لأنهم مسلمون. وقد صمت الغرب بعض الوقت على تلك المذابح بهدف إضعاف تلك الأمة الإسلامية وربما استئصالها. لا يمكن للمسلمين جميعاً أن ينسوا تلك المذابح المشينة، ولا يمكن أن ينساها الكوسوفيون أيضاً. ولمّا

كان العامل الديني هو السبب في الظلم الذي تعرّضوا له. فإن هذا العامل نفسه سوف يكون بعد استقلال حكومتهم هو المحفّز لنهضتهم المرتقبة.

مع هذه الأمّة التي دخلت حديثًا إلى المجتمع الدولي، تعقد الكثير من الآمال والسعادة العارمة والغضب الكبير، بالإضافة إلى الكثير من المخاوف. تنصب الآمال قبل كلِّ شيء على التمكّن الآن من إنهاء أزمة إقليمية ما تزال مستمرة منذ عهد طويل بين الأغلبية الألبانية والصرب أزمة عانى منها الطرفان معاناة شديدة. وتتركّز السعادة في كوسوفو بالذات، حيث عبَّر حوالي 95 في المئة من السكان عن فرحتهم وسعادتهم بإعلان الاستقلال في الـ17 من شباط 2007 وفي المقابل يكمن مركز الغضب في بلغراد وفي جمهورية صربيا، التي ترى أنَّها خُدعت في جزء من أراضيها.

أما المخاوف فتتعلق على مستوى عالمي بالنتائج التي يمكن أن تترتب على القانون الدولي، وبمقدرة كوسوفو على العيش التي يُعتقد أنَّها ضعيفة جدًا أو بالآثار التي ستنعكس على صربيا - وكذلك بقيام دولة كوسوفو باعتبارها "دولة إسلامية" تتمركز في وسط أوروبا.

مخاوف الغرب من التجمع المتطرف

ما إن أعلن استقلال كوسوفو حتى صدرت الكثير من التصريحات الغربية التي تتخوف من تجمع التطرف الإسلامي المهدد لأوروبا في كوسوفو، ومن هذه المقولات: "ينشأ هنا في وسط أوروبا معقل مستقبلي للإسلام السياسي الذي ينشط على مستوى عالمي؛ من الممكن أن يتم استخدام هذا المعقل من قبل الإرهاب الإسلاموي كنقطة انطلاق مناسبة" - إنَّ مثل هذه المقولات لا تُسمع أو تُقرأ فقط في بلغراد، بل كذلك في دول مجاورة مثل رومانيا، وأيضًا وعلى سبيل المثال في بعض منتديات الإنترنت الألمانية.

وبالإضافة إلى ذلك هناك أيضًا آمال غربية مختلفة تمام الاختلاف تُعقد على "دولة كوسوفو الإسلامية". فالمتفائلون هم الذين يتفقون اليوم مع الحكومة الكوسوفية الجديدة، ويعتبرونها ستبقى ممسوكة ومقبوض عليها كما يمسك

الغرب بقرار الرئيس الأفغاني قرظاي مثلاً. فقد رأى السفير الإسرائيلي السابق في ألمانيا، آفي بريمو، في مقالة نشرت في صحيفة فرانكفورتر روندشاو، كيف يمكن أن تتحوّل كوسوفو إلى أوّل "بلد ديموقراطي بمعنى الكلمة وعلماني إسلامي حسب مفهوم الدول الغربية" وإلى نموذج يحتذي به العالم الإسلامي كلُّه وكذلك الأقليات المسلمة في أوروبا الغربية". وتعقد الإدارة الأمريكية أملها، وتقول: "إنَّ المسلمين في كلِّ أرجاء العالم سوف يتعلَّمون من خلال السياسة الأمريكية في كوسوفو أنَّ واشنطن لا تتّبع سياسة معادية للإسلام". كل هذا يدل على وجود تصميم غربي متقن لدولة مواطنوها مسلمون لكنها تخدم المصالح الغربية بكافة أبعادها. فقد تم استخدامها منذ يوم قيامها لمجابهة المعسكر الروسي الصربي الذي بدأ يكبر ويتعاظم في الغرب. وفي المستقبل ستضم كوسوفو الوافدين الإسلاميين الجدد وسيتم توظيفهم في مواجهة المعسكر الروسي، كما وظفت المقاومة الأفغانية من قبل في مواجهة السوفييت في أفغانستان.

فضلاً عن أقلية من الروم الكاثوليك يعتبر الصرب غير مسلمين، أما أبناء الأقليات العرقية الصغيرة، مثل الأتراك والبوسنيين وبعض مجموعات المسلمين السلافيين الآخرى بالإضافة إلى الغجر؛ فجميعهم يعتبرون تقليديًا من معتنقي الإسلام.

بيد أنَّ كوسوفو باعتبارها دولة وعلى خلاف كلِّ التصوّرات الخيالية والأوهام الخاصة بالهيئات الدولية العاملة هناك، لا تعدّ بالدرجة الأولى بلدًا متعدد الأعراق، كما لا يمكن على الإطلاق تصوّر مشروع دولة "كوسوفو" بغير صورته الألبانية القومية. كذلك لم يتم وصف هذه الدولة في الفقرة الثانية من إعلان استقلالها فقط كدولة "ديموقراطية"، بل أيضًا كدولة "علمانية". فظهور رئيس وزراء كوسوفو، هاشم تاتشي، قبل يوم من إعلانه رسميًا في التلفاز استقلال كوسوفو وهو بجانب المفتي نعيم ترنافا. إلاَّ أنَّ هاشم تاتشي كان يقف أيضًا بجوار أسقف أبرشية كوسوفو الكاثوليكي. وذلك لإظهار علمانية الدولة وتسامح المسلمين تجاه الصرب والأديان الأخرى. وتلك أيضاً رسالة لجيرانه الصرب الطائفيين.

لكن وعلى الرغم من ظهور رئيس الوزراء مع رجلي الدين، من الجدير ملاحظة أنَّ المسلمين في كوسوفو لا يتميّزون في العادة بتشددهم في أمور الدين كما هي الحال في بعض البلدان العربية. وأنَّ التعاليم الإسلامية تكاد لا تطبّق هناك تطبيقًا كاملاً وأنَّ الكثير من المساجد غالبًا ما تكون خالية من المصلين.

نشأت الأمة الألبانية الحديثة بكاملها منذ بدايات تبلور وعيها القومي في الفترة المتأخّرة من الحكم العثماني وفي داخل حدود دولة ألبانيا وخارجها على أسس قومية وعرقية ولغوية، إضافة إلى الهوية الإسلامية، واليوم تقوم الدولة على نفس الأسس تقريباً،

يكمن أحد أهم الأسس الرئيسة لنشوء هذه الأمة في محيط ألباني متكامل الذي يتألَّف من الناحية الدينية من حوالي 80 في المئة من المسلمين (سُنّة وأتباع طرق صوفية) وحوالي 10 في المائة من المسيحيين (الأورثوذكس في جنوب المنطقة التي تنتشر فيها اللغة الألبانية والكاثوليك في شمالها)، في عدم وجود "أمّة إسلامية" تكوّنت هنا بجوار أقليات أخرى غير مسلمة يتم التعامل معها في أحسن الأحوال بتسامح.

وعليه ربما يكون الألبان في العالم الإسلامي قد سلكوا في الحقيقة طريقًا خاصة؛ فحيثما كان الولاء الوطني يتعرّض للخطر أو كان يبدو أنَّه معرض للخطر بسبب الانتماء الديني، كان يتم ولا **يزال التقليل من أهمية الدين من قبل المدافعين عن الهوية القومية الألبانية وعن كلِّ ما هو ألباني.**

السكوت عن الهوية الإسلامية

وبناءً على ذلك فإنَّ ممثلي الإسلام الألباني المنظّم المنتشر في كلّ من ألبانيا وكوسوفو ومقدونيا يتحدَّثون اليوم أيضًا في صدد كوسوفو بلهجة قومية وليست دينية. ففي زيارته الأولى لكوسوفو الجديدة وعلى وجه التحديد في اللقاء الإسلامي الذي عقدته هذه الدولة الجارة الجديدة، هنّأ "رئيس العلماء" الألباني في مقدونيا، سليمان ركسهبي، الشعب الألباني باستقلال "الدولة الألبانية الجديدة" - ووصف استقلالها كتعبير عن "حلم يمتد لقرون من الزمن حققه الآن الشعب الألباني"، غير

أنَّه لم يذكر الإسلام في حديثه. فالسكوت عن الهوية الإسلامية لدولة كوسوفو يبدو متعمداً عند الجميع وإرضاءً للدول القوية التي دعمت هذا الاستقلال وستستمر في دعم كوسوفو لكن بشروط كثيرة، ولعلّ أهمها هذا السكوت عن الهوية الإسلامية. ولنا أن نتنبأ بأنه لن يدوم.

كما أنَّ المساعي التي سوف يبذلها بعض المموِّلين العرب من أجل نشر الإسلام في كوسوفو وتعزيز الدعوة، مثلما هو منتشر في بلدان أخرى تلك ستكون مراقبة بصرامة من قبل الدول الغربية راعية هذا الاستقلال.

من الممكن أن يكون هذا أمرًا مطمئنًا للغرب، وهم يريدون أن يكون الدعم الأوروبي والأمريكي لكوسوفو مساعداً في تحسين سمعة الغرب لدى المسلمين في كلِّ أرجاء العالم.

ومن الجائز أن يكون المخطط الغربي لكوسوفو جعلها مكاناً لتجميع التطرف الإسلامي الغربي الذي أصبح لابد من وجوده وتكاثره. فيتم بعد ذلك القضاء على هذا التطرف بإشغاله باقتتالات مفتعلة مع الصرب المشاغبين في أوروبا ولمواجهة الهيمنة الروسية هناك.

الغليان الإسلامي في العالم

يكثر الإقبال على الإسلام في الغرب عموماً، وقد نشرت مجلة "المسيحية اليوم" دراسة جاء فيها: إن خلاصة دراسة المشاركين تبين أن الإسلام أسرع انتشاراً من المسيحية في دول الغرب عموماً، فالإسلام ينتشر بنسبة 1.9٪ سنوياً، بينما تنتشر المسيحية بنسبة 1.3٪ في السنة. ويخوض الإنجيليون في هذه الأيام سباقاً محموماً مع دين الإسلام الذي يتزايد معتنقوه الغربيون بالآلاف دون نشاط دعوي كبير للمسلمين، إذ يقوم الإنجيليون بإجراء الدراسات والحسابات والمعادلات لوقف هذا الانتشار والظهور الإسلامي الكبير. وحسب الإحصائيات المنشورة فإنه يعتنق الإسلام سنوياً ما بين 30 ألف و40 ألف فرنسي، و500 ألف أمريكي منذ تفجيرات 11 سبتمبر/أيلول 2001. كما وينتشر الإسلام في إفريقيا بسرعة أكبر بكثير، وقال الشيخ هارون سينجوبا من اتحاد مجلس مسلمي شرق ووسط وجنوب إفريقيا

"في أوغندا ينتشر الإسلام بسرعة غير منتظرة. وفي كل دقيقة يأتينا أناس يريدون اعتناق دين الإسلام..." كما وينتشر الإسلام في جنوب إفريقيا بين السود حيث أن نسبة 80٪ من السكان البالغ عددهم 45 مليون نسمة نصارى. وهذا ما يقلق المنظمات المسيحية العالمية. حتى أن هذا الانتشار الواسع جعل أحد القساوسة الألمان يقدم على الانتحار مخافة من امتداد الإسلام. وفي ألمانيا يتزايد الإقبال على اعتناق الإسلام فحسب الأرقام الرسمية الألمانية، فإن ألف مسيحي ألماني اعتنقوا الإسلام في العام 2005، وارتفعت النسبة كثيراً في العام 2006 فبلغ عددهم 3000 ألماني. أي مايعادل تسعة حالات دخول في الإسلام يومياً في ألمانيا وحدها. ويذكر أن بعضهم تعرّف على الإسلام بدون مساعدة أي مسلم وقسماً آخر استفادوا من حوارات إلكترونية مع مسلمين. ومما لاشك فيه أن خوض المسلم في مجال الدعوة للإسلام والتعريف به والتقرب من الغربي المسيحي ومصالحته ومصادقته وكسب ودّه وموقفه. ذلك أفضل بكثير من الخوض في التطرف ونفي الغربي ونفي المسيحي واستعدائه. ففي هذه السنوات تنفتح أمام المسلمين منافذ وآفاق واسعة ومتنوعة، وتوجب عليهم استثمارها. لأنها فرصة تاريخية. وبنفس الوقت فإن في الغرب منظمات صهيونية ضاغطة تحارب الإسلام وتحول دون انتشاره. مما يوجب علينا التيقظ والحذر والتصدي لفتنها وأضاليلها. ولن نقدر على القيام بتلك المهام إذا بقينا منشغلين بأتون الطائفية.

أسلمة الأوروبي: العملية السهلة

تعريف الأوروبي بالإسلام ودعوته لاعتناقه أمر ليس بالصعب، ولا يحتاج لجهد كبير. فالغربي عاقل واع ومناقش بارع، ومفكر حاذق. وهو يعرف مصلحته ويبحث باستمرار عن الحلول الجديدة لمشاكله وآلامه. وعندما يكتشف بأنّ الإسلام مفيد له فهو بسهولة يعتنقه ويتبنى قضاياه. والغربي لا يخجل من مجتمعه ولا من الأفراد المحيطين به. فهو يمتلك كامل الحرية في اعتناق الفكر الذي يريده لنفسه. وإنّ صفة المجتمع الغربي هذه والتي تمنح الفرد كافة حرياته تسهّل كثيراً انتشار الإسلام في الغرب كله. ولمّا كانت مجتمعاتنا العربية متخلفة ومنغلقة ولمّا

كان المجتمع الصغير ينشغل طوال أشهر مثلاً بقصة شاب حليق الشعر أو طويل الشعر أو يعتنق مذهباً إسلامياً آخر، فإن عادات مجتمعاتنا تعيق أي تطور فكري عند الفرد. ولهذا السبب تقلّ كثيراً حالات اعتناق مسيحيين للدين الإسلامي في بلداننا. كما تندر حالات انتقال الأفراد المسلمين إلى مذهب إسلامي آخر. فبرغم أن الدروز مثلاً مسلمون فإنّ داعية مسلم كبير يقدر على دعوة ألف أوروبي مسيحي لاعتناق الإسلام، وبنفس الوقت قد لا يقدر على دعوة مسلم درزي واحد للتحول داخل الإسلام إلى المذهب الجعفري أو السنّي مثلاً. وأتينا بهذه المفارقة لنبيّن فحسب مدى سعة قلب الغربي لتقبّل الفكر الجديد.

احتجاج كنسي على انتشار الإسلام

في وسط ألمانيا وفي باحة الكنيسة الإنجيلية في ساكسونيا عبّر رجل الدين المسيحي رولاند ويسيلبيرج عن احتجاجه على تضاؤل نسبة المسيحية وتحوّل الشبان إلى الإسلام بانتحاره . حيث صبّ على جسده الكاز وأشعل النار بنفسه. وترك وصية واضحة يقول فيها بأنه قلق من الانتشار السريع والمتزايد للمسلمين في ألمانيا ، وإنه كممثّل للكنيسة عجز عن منع تلك الظاهرة أو تخفيفها.

تحول الحضارة الغربية

يرى البعض بأن مستقبل العلاقة الأوروإسلامية مجهولة، ويرجّح هؤلاء بأن الأحداث الحاسمة التي سوف تحدد علاقة أوروبا بالإسلام لا زالت في طور التشكل، مما يجعل أن لا أحد يمكنه أن يُصدر حكماً نهائياً. ولكن ساعة الحسم قد اقتربت. فمن هنا إلى أواسط العقد المقبل تقريباً سوف تكون التذبذبات الحالية قد وصلت إلى نهايتها، بحيث سوف تتضح الأمور، والمعادلة "أوروبا-إسلام" سوف تضيق، والمنحنى الذي سوف يقرر مستقبل القارة سوف يكون عليه أن يظهر بوضوح. وإنه حري أن يكون من الصعب استباق هذا التحول، لا سيما وأنه دون سابقة تاريخية. فليس هناك أي مساحة ترابية بهذه الشساعة سبق أن انزلقت من حضارة إلى حضارة أخرى على إثر انهيار ديمغرافي، أو ديني، أو هوياتي لساكنتها.

وليس هناك أي شعب سبق له أن انتصب أو تمرد إلى هذه الدرجة ليدعو إلى تراثه التاريخي. إن المشكل الأوروبي هو غير مسبوق وممتد وواسع لدرجة أنه من الصعب جداً فهمه، ومن المغري جداً تجاهله، ويكاد يكون من المستحيل استشراف أو التنبؤ بتطوراته الممكنة. إن أوروبا تسير بقاطنيها جميعاً في اتجاه المجهول.

ظاهرة الاحتجاج على المدّ الإسلامي

هناك حركة من السخط والهيجان أخذت في التململ، في أوساط النخب، وبقدر أكبر بكثير داخل الأوساط الجماهيرية التي تحتج بصوت آخذ في الارتفاع أمام التطورات الجارية. هذا الشعور عبّر عنه بالخصوص القانون الفرنسي ضد الحجاب، وعبر عنه التبرم الذي أثاره تطبيق نفس القوانين على الرموز الدينية المسيحية كذلك، كما يعبر عنه الإصرار على تقديم الخمر في العشاءات الرسمية. ويذكر أنه في العديد من المدن الفرنسية في بداية سنة 2006 تعمّد توزيع الشوربة بلحم الخنزير على الفقراء، وبهذا يتم إقصاء فقراء المسلمين عن سبق نية وتعمد من تلك المعونات الغذائية.

كما عبّرت الكنيسة البابوية في (آب 2007)عن قلقها الكبير بسبب ظاهرة المدّ الإسلامي الذي يغزو أوروبا، وأكّدت بأنها عازمة على التصدي له بالحوار بين الطوائف المسيحية نفسها وبين المسيحية والمسلمين.

منظمات يهودية تحرّض المسيحية ضد المسلمين

إثر تزايد اعتناق المسيحيين الغربيين للديانة الإسلامية، تقوم منظمات صهيونية بالدرجة الأولى بمنع اتساع هذه الظاهرة. وبنفس الوقت فهي تقوم بنشر إشاعات كاذبة في الغرب تدّعي فيها بمعاناة المسيحيين العرب من الاضطهاد في مجتمعاتهم. ففي كانون الثاني 1996 انضم هوروفيتز إلى نيناشيا اليهودية المتعصبة رئيسة برنامج حقوق الإنسان في منظمة "بيت الحرية" ومؤلفة كتاب "عرين الأسد" الذي زعمت فيه أن مصر والسودان وإيران والسعودية وباكستان هي الدول الأكثر اضطهاداً للمسيحيين، واعتبرت أن الإسلام مثله مثل الشيوعية في اضطهاد

المسيحيين. ونظم هوروفيتز ونيناشيا مؤتمراً عقد في واشنطن تحت عنوان "أثر الأسلمة على العلاقات الدولية وحقوق الإنسان" شارك فيه ستيف أمرسون التلفزيوني الأمريكي المتعصب، صاحب الفلم التسجيلي الشهير المعادي للإسلام "الجهاد في أمريكا". وعبّر المؤتمر عن الخشية من تزايد دخول المسيحيين في الإسلام، وطالب بوضع برامج للقضاء على هذه الظاهرة.

وفي يناير/كانون الثاني 1997 نظم هوروفيتز وبيت الحرية مؤتمراً آخر تحت عنوان "اليوم العالمي للتضامن مع الكنيسة المضطهدة" حضره ممثلو أربعين ألف كنيسة في الولايات المتحدة تضامناً مع المسيحيين في الدول الإسلامية.

واتهم المؤتمر كلاً من الكنائس الأمريكية والإدارة الأمريكية بالتقصير في إنقاذ المسيحيين العرب، ودعا إلى إنقاذ مسيحيي الشرق من "براثن الإسلام".

الإسلام للجميع

الإسلام للجميع، وليس لأحد الحق أو التصريح بأن ينفي الإسلام عن الآخرين الذين يقولون (نحن مسلمون). وليس لأحد الحق أو الترخيص بأن يكفّر بشكل اعتباطي أحداً أو جماعة أو فئة من المسلمين. فالمتطرفون مسلمون والقاعدة مسلمون والإخوان مسلمون وفتح الإسلام مسلمون وحماس وحزب الله مسلمون. والعلمانيون العرب (البعث والاشتراكيون والقوميون والشيوعيون) مسلمون وكافة حكام الدول الإسلامية وشعوبها مسلمون. والسنّة والشيعة والدروز والإسماعيلية والعلوية والإيزيدية مسلمون.

إنّ أخطاء تجريد التطرف من الإسلام الذي يعتنقه الأفراد المتطرفون أمر يضرّ بالحوار مع التطرف نفسه، بل ويلغي الحوار كله. في حين أن ذلك الحوار ضروري. فالمتطرفون هم أبناء مجتمعاتنا، وهم أبناء أسر ولهم آباء وأبناء وأخوة وأقارب وأصدقاء. ولا يمكن نفيهم من الإسلام، بل يمكن محاورتهم داخل الثقافة الإسلامية وبواسطة الفكر والفقه والعقيدة.

والإسلام هو ملك للبشرية جمعاء فيمكن لأي شخص مهما كان دينه أن يقوم بدراسات فكرية وتحليلية أو اجتهادات تفيد المسلمين وتكون خطوات في

تطورهم. وقد استفاد المسلمون مرات كثيرة من دراسات غربية حول الإسلام، ويجب عليهم أن يستمروا بالبحث عن الدراسات الجديدة الأخرى.

آيات قرآنية كثيرة تخاطب البشرية كلها، في قوله تعالى: **(يأأيها الناس)** سورة البقرة 21، وهذا يعني أن الإسلام يمكن أن يكون موضوع بحث ونقاش ودراسة لدى جميع البشر، وقد رأينا في السنوات الأخيرة بأن بعض الانتقادات التي توجه للمسلمين وللإسلام تلقى اعتراضات وانتقادات مضادة من داخل الغرب نفسه. فلا خوف إذاً من تلك الافتراءات لأنها تأتي ضمن نطاق الجدل والنقاش الدائرين في محاولة التعرف على الإسلام والبحث عنه والبحث فيه. ولما كان الإسلام عظيماً وموثوقاً فهذا يعني أن لا خوف عليه مطلقاً من أي افتراءات بل إن الخوض فيه والتحفيز على جعله موضوع النقاش العام على الصعيد العالمي سيؤدي حتماً إلى التعرف عليه أكثر فأكثر ولن يثمر ذلك إلاّ إلى اتساع رقعة المكان الإسلامي وازدياد معتنقيه. قد لا يتصور أحد بأن الرسوم الكاريكاتورية تفيد الإسلام على المدى البعيد.!.

حاجة المسلمين للغرب

يطلق بعض المسلمين وخاصة المتطرفين شعارات معاداة الغرب، ومقاطعته، بل وتتطور الأزمة أكثر عند أفراد القاعدة الذين حاولوا إجراء فصل تام بين الغرب والشرق الإسلامي. ففي بياناتهم الكثيرة أمروا المسلمين المقيمين في دول الغرب بأن لا يدخلون المباني أو الأبراج أو القطارات .. وكادوا يأمروا المسلمين بالعودة إلى بلدانهم الإسلامية ليتم الفصل النهائي بين الغرب والشرق.

وانّ أفراد القاعدة أنفسهم ورغم إعلانهم الصريح عن عدائهم للغرب وعن رغبتهم بتدميره. فهم شعروا باستمرار لحاجتهم للغرب نفسه ولنتاجه الصناعي والعلمي والتقني والفكري والمصرفي وغير ذلك الكثير. فعندما قاموا بتدمير مركز التجارة العالمي استخدموا الكومبيوتر والإنترنت ودرسوا قيادة الطائرات وركبوا سيارات وقطارات وطائرات وكل ذلك من نتاج الغرب نفسه. وعندما نتأكد بأننا بحاجة لعلوم الغرب ونتاجه ندرك أهمية التحاور معه. وأهمية المصالحة

معه، ونستبعد نزوة محاربته.

وفي مجتمعات الدول الإسلامية كلها يستفيد الفرد من نتاج الغرب كله. ففي هذا العصر استطاع الغرب أن يطوّر كافة العلوم ويصل بها إلى نتائج مذهلة. وصحيح أن فينا أطباء وفيزيائيين وفنانين وأدباء مبدعين ولكنهم جميعاً يستخدمون سلّم النتاج العلمي الحديث ويتحركون بواسطته ويتطورون من خلاله. فصحيح أننا نصنع السيارات في بلداننا، لكننا لأجل صناعتها نستخدم آلاف العناصر والمصنوعات والنظريات العلمية المستوردة من الغرب. لكننا بهذا الجهاد السلمي اكتشفنا بأن قتل الآخر ليس سوى عقبة وعرقلة لجهادنا هذا، ويصبح القتل جريمة تستهدفنا نحن المجاهدين الحقيقيين. وتستهدف أصدقاءنا المسلمين الآخرين والمسيحيين عرب وغربيين.

صياغة كيان إسلامي في الغرب

يبحث المسلمون في الغرب عن إيجاد كينونة إسلامية واضحة خاصة بهم ويرجع ذلك إلى سببين: أحدهما: الحاجة لإيجاد ملجأ بعيد عن العداوة المتزايدة داخل المجتمع الغربي تجاه المسلمين. وإن هذا الاتجاه السلبي قد تزايد بصورة كبيرة منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إذ تظهر الدراسات هذه الزيادة في العداوة قد أوضحتها جامعة كورنيل الأمريكية في ديسمبر عام 2004، والتي كشفت أن 44٪ من الأمريكيين الذين دخلوا ضمن هذه الدراسة يعتقدون أن الحكومة الأمريكية عليها تقييد الحريات المدنية للمسلمين الأمريكيين.

والسبب الثاني هو في أن يكونوا جزءاً من البعث الإسلامي المنتشر في جميع أنحاء العالم. وبالنسبة للكثيرين من مسلمي الغرب، لكي تكون مسلماً ظاهراً للجميع فلابد من القيام بالاعتراض على الحركات العالمية التي تدين الإسلام. وإن جيل الشباب منهم يشعرون أن عليهم الاختيار بين أن تصبح جزءاً متكاملاً في المجتمع الغربي والذي يتطلب الموافقة على الأعراف الاجتماعية التي يجدونها شيئاً بغيضاً عن عقيدتهم، أو عليهم الانضمام إلى حملات البعث الإسلامي في جميع أنحاء العالم، والكثير منهم يفضلون الاختيار الثاني. إن الدراسات الحديثة توضح

هذه الاتجاهات. و إحدى الدراسات التى أجريت عام 2004 على يد البرفيسور إحسان باجبىيمن جامعة كنتاكي، أظهرت أن هناك تزايداً كبيراً في عدد المساجد بسبب زيادة عدد المقبلين على الصلاة فى هذه المساجد. وتبين أنه في المتوسط فإن الشخص الذى يشارك في المساجد يبلغ من العمر 34 عاماً، وهو مهاجر منذ فترة طويلة متزوج ولديه أطفال ودرس فى الجامعة وإلى حد ما ميسور الحال. وحوالي الخمس هم من الجيل الثاني من المهاجرين وعلى العكس المسلمين في العالم الإسلامي الذين ينظرون إلى المساجد أساساً على إنها دور للعبادة فقد اكتشف باجبي أنه على الرغم من أن 58٪ من هؤلاء الذين أجريت عليهم الدراسة لا يرون ذلك، فإن 42٪ ينظرون إلى المسجد على أنه مركز للتعليم والأنشطة. وإن معظم الذين قاموا بعملية المسح عليهم، يعتقدون أن الهدف الرئيسي من المسجد هو إمداد الشباب بالمعرفة الإسلامية. لقد تغير دور المسجد كثيراً في الغرب ، فأصبح المسجد مكاناً للاختلاط بالمؤمنين الآخرين وعلى أنه مكان للتجمع التعليمي والاجتماعي

وعند سؤالهم كيف يمارسون طريقة عبادتهم فإن هؤلاء الذين طبقت عليهم دراسة المسح قد انقسموا بين 38 ٪يفضلون طريقة مرنة لتفسير النصوص المقدسة ولصياغة هوية إسلامية جديدة، فقد رجع الشباب الأمريكي إلى التعاليم الأساسية للإسلام، وذلك من خلال دراسة القرآن والسنة، وهما أهم مصدرين للشريعة. وهذا مايجعلهم يلتقون مع السلفية.

وأظهرت دراسات أخرى تصاعد العدائية ضد المسلمين. لقد قاموا بتخريب المساجد وكان الأطفال هم هدف التعليقات العنصرية في المدارس العامة. لقد عانى المسلمون التفرقة في المعاملة فى أعمالهم، مما يؤدي إلى تصاعد الشعور بالاغتراب والقلق والخوف في صفوف المسلمين. وللتخفيف من تلك الآزمة قامت العديد من الجامعات بافتتاح فروع جديدة لتدريس الإسلام والتاريخ الإسلامي، ونرى ذلك في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. فقد تبين بأن جهل السكان بالإسلام كان أحد أسباب ظاهرة العدائية للمسلمين. وتقوم تلك الكليات إضافة إلى مؤسسات أخرى بندوات ولقاءات وحوارات للتعريف بالإسلام. ويميل قسم من المتعصبين المسلمين الى

معاداة حكومات بلدانهم الغربية . ففي أمريكا تيار يعتبر المساعدات الأمريكية المقدمة إلى منظمات أو حكومات إسلامية حراماً ويتوجب رفضها، ويبنى هذا الرأي على اعتبارها أموالاً قذرة. وكنتيجة لتلك الأوضاع الساخنة في الغرب يلاحظ تنامي تيار إسلامي جديد متشدد ويخشى أن يصطدم هذا مع الحكومات الغربية في المستقبل. وفي ألمانيا كانت الحكومة الألمانية والمؤسسات العديدة فيها تجد صعوبة في مخاطبة الكيان الإسلامي نظراً لتعدد المؤسسات والجماعات الإسلامية هناك وتعدد اتجاهاتها ومواقفها. وفي نيسان 2007 اجتمع بضعة آلاف من زعماء الجماعات الإسلامية المتعددة في ألمانيا واتفقوا على توحيد مؤسساتهم كلها ضمن مؤسسة واحدة وإدارة واحدة وتحمل رأياً واحداً، ويعتبر هذا الاتحاد الإسلامي في ألمانيا هو الأول من نوعه على الصعيد العالمي كله. إذ بين تلك الجماعات التي اتحدت اختلافات منهجية تقليدية. فمنها الجماعات السلفية التي تتناقض مع الصوفية ومنها الشيعية والإخوانية.

القيم والأخلاق والدين بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي

المعروف تاريخياً بأن القيم والأخلاق كانت سائدة في المجتمعات الشرقية منذ آلاف السنين، فالمجتمع الشرقي هو مجتمع قيم وثوابت راسخة في أعماق الفرد وفي ضميره ووجدانه. وقد تميّز العرب عن غيرهم من المجتمعات العالمية باتصافهم بالقيم والأخلاق النبيلة وتعزيزهم لها. وهذا ما يعبّر عنه الحديث النبوي الشريف (إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق)، حيث كانت الأخلاق قيم وثوابت عند العرب. ويؤكد العرب على مصطلحات لا نجد لها رديف واضح في المصطلحات اللغوية العالمية: (ضمير – كرامة – كرم – إباء – وجدان ...إلخ). وكانت القيم عند العرب تحتل المكانة الرئيسة والعليا عند الفرد. وبظهور المسيحية ظلّت القيم في هذا المقام العالي الذي يرسم ويحدد شخصية الفرد. وبظهور الإسلام تعززت مكانة القيم وأصبحت من أسمى وأعظم الثوابت عند الفرد المسلم. وتميّز الإيمان الإسلامي بأنه يوسم الفرد بصفات كاملة تحدد شخصه وبناءه الفكري والقيمي والأخلاقي والاجتماعي: فالإسلام يغزو الفرد غزواً كلياً ويجعله مسلماً خالصاً يتميز عن غيره

من بني البشر كافة. الإسلام يدخل في العقل وفي النفس وفي القلب ويجعل روح الفرد إسلامية. ويسيطر على كامل الشخصية لأنه يلبّي كافة احتياجاتها ومتطلباتها طوال حياة الفرد ويؤسس له لكسب الآخرة، وما ذلك كله إلا بفضل عظمة الإسلام نفسه.

هاتان الصفتان: عظمة الإسلام وسيطرته الحميدة على كامل الشخصية الإسلامية، وصفات الشخصية العربية والشرقية التي تعزز دور القيم والأخلاق والنبل في الفرد هما السمتان اللتان يفتقد إليهما الغرب منذ آلاف السنين وحتى اليوم. فبينما يعتبر الوازع الديني من الثوابت في الشخصية العربية والإسلامية، نجد أن الثوابت والقيم في الشخصية الغربية ليس دينية ولا هي إيمانية بل هي قيم أخرى: اجتماعية وقومية وعرقية ومادية وما شابه ذلك. ولهذا فقد ثبت المسلمون على دينهم منذ ظهور الإسلام بينما الغرب يقبل بسهولة أن يغير ويعدّل ويخترع ديانات جديدة ويقبل أن ينتقل بسهولة من معتقد إلى آخر دون الإحساس بأي ذنب اقترفه.

فالقيم والثوابت الاجتماعية هي عند الغرب أقوى وأكثر رسوخاً وأهمية من القيم الدينية: فتحريم وتجريم الكذب في الغرب هو من القيم الاجتماعية وليس من القيم الدينية وبذلك اتفق الغرب على ألا يكذب الأفراد، وقد أصبح تحريم الكذب من القيم والثوابت بفضل التجارب التاريخية التي علّمت الفرد وفرضت عليه ضرورة الصدق وبفضل توصل الغرب لنتيجة أن الصدق يحافظ على بنية المجتمع الغربي وأن الكذب يهدم المجتمع والعلاقات الاجتماعية. والمصلحة العامة هي من القيم الإجتماعية والسياسية في الغرب ويلتزم بها الأفراد كثوابت لا يمكن الحياد عنها وهذه الثوابت تفوق عندهم أولوية الثوابت الدينية، وبالفعل فإن هذه الثوابت والقيم تحلّ مكان الثوابت والقيم الدينية في الغرب.

بينما كانت القيم الأخلاقية هي من الثوابت الدينية في الشرق نجد أن الغرب اعتبرها من الثقافة الفلسفية والفكرية ليس إلاّ. فقد تحدّث أفلاطون وأرسطو وبعض فلاسفة اليونان عن الأخلاق والقيم، وتبعهم فلاسفة أوروبا في العصر الوسيط في التنظير لمبادئ القيم والأخلاق، وهذا التنظير لم يضع الأخلاق في مقامها الصحيح عند الغربيين بل جعلها ضمن إطار الثقافة الفكرية والفلسفية. ولم يجرؤ

أحد من فلاسفة الغرب على ربط القيم والأخلاق بالدين بل إنهم جميعاً عزلوها عن الدين، واستمر هذا العزل حتى يومنا هذا في العقل الغربي. على عكس الحالة عند المسلمين: فقد ربط فلاسفة الإسلام (ابن رشد وابن خلدون وابن سينا والفارابي) ربطوا القيم الأخلاقية بالدين الإسلامي، وبذلك عززوا الانتماء الديني والقيم الإسلامية ورسخوها في قلب الفرد.

فالشرق المسلم (بما فيه المسيحية العربية) أيقن كل ما يتعلق بالدين وجعل تجاوزه من المحرمات، وجعل الدين هو الأيقونة الوحيدة التي لا يمكن تجاوزها. فيما الغرب أيقن مبادئ عديدة قائمة على أسس اجتماعية وعلمانية وفلسفية ونفعية وقومية وغير ذلك. وجعل تجاوز أيّ من هذه الإيقونات هو من المحرمات والمنكرات. فالمحرّم عند المسلمين هو وحده المحرم دينياً، فيما المحرّم عند الغربين هو ما ينافي القيم المتفق عليها. ولذلك يجرؤ بعض الغربيون على تجاوز الديني وانتقاده بل وأحياناً التطاول عليه (ويمكن بهذه الطريقة تفسير تطاول بعض الغربيين على شخصية المسيح وظهور الرسوم التي تنتقد الرسول محمد عليه السلام).

المسيحية العربية أيقنت كل ما هو ديني تماماً كالمسلمين وذلك لأنها من سلالات الشرق الذي استمر منذ آلاف السنين بتعظيم القيم الأخلاقية قبل ظهور الأديان، والسبب الثاني الداعم للتدين المسيحي العربي وهو كونه تأثّر بالإسلام نفسه وأخذ عن الإسلام جلّ عناصر الديانة المسيحية السائدة اليوم. وعند الحديث عن أهل الكتاب الذين يعبدون إلهاً هو نفسه الله عند المسلمين، وبتطبيق الآيات القرآنية المتعلقة بأهل الكتاب فإننا نحصر تطبيقها الممكن على المسيحيين العرب ومن في حكمهم ويتعذّر تطبيقها على أبناء الغرب لأن الغرب ليس مسيحياً في أي شيء من صفاته.

ويمكن تفسير أحداث العنف والإبادة والقتل العشوائي الذي تمارسه الصهيونية وأفراد الجيش الأمريكي، والأعمال الإرهابية التي يقوم بها أفراد في الغرب نفسه كهجوم على مدرسة أو جامعة وقتل لعدد كبير من طلابها دون أي سبب، يمكن تفسير ذلك كله بأن فعل القتل الذي تحرمه المسيحية السماوية لم يندرج بالنسبة للغربي ضمن المحرمات المأيقنة التي لا يمكن تجاوزها. فلربما يكون

هذا القاتل نفسه قد جاء راكباً القطار إلى المدرسة ليرتكب فيها جريمته، ومن المرجح أنه التزم بقطع بطاقة الركوب، ولربما يكون في طريقه قد تناول صحيفة ووضع ثمنها في الصندوق، نقصد بأنه يظلّ ملتزماً بالقيم الاجتماعية الأوروبية الدارجة ولا يسمح لنفسه بأن يتجاوزها وبنفس الوقت يقبل بل ويسعى لتجاوز القيم الدينية باندفاع شديد.

يمكننا تطبيق عبارة من نوع (الشرق شرق والغرب غرب) انطلاقاً من العلاقة مع الدين والقيم. فالغربي لن يصبح متفهماً لأسس القيم الموجودة عند المسلمين إلا بعدما يتأسلم. والمسلم لا يمكنه أن يتجرد من القيم الدينية والثوابت الإسلامية على الإطلاق. فالغربي بصفته باحث أو فيلسوف أو سياسي لم يكتشف حتى اليوم هذه الخاصية الموجودة عند المسلمين ولا هذا التمايز الذي يقوم بين المسلمين والغربيين ولذلك فإن كافة مخططات الغرب الموجهة ضد المسلمين تفشل باستمرار. فمحاربة القاعدة ومحاولة وقف أو السيطرة على التطرف الإسلامي تفشل عند الغرب لأن الغرب لا يدرك معنى العلاقة بين المسلم وعقيدته. والغرب يظن أنها علاقة مماثلة لعلاقة الغربي بعقيدته وذلك خطأ فادح. والنتيجة التي سيتوصل إليها الغرب ولربما بعد عقود أو قرون هي أنه لا يمكن اللعب داخل المنظومة الدينية الإسلامية.

الانقلابات والتغيرات الكثيرة والسريعة واعتناق مبادئ أو عقائد جديدة التي تحدث في الغرب لا يمكن أن تحدث في المجتمعات الإسلامية مطلقاً. ونقصد بها ظهور عقائد وديانات وفلسفات يجري وراءها بسرعة مذهلة الكثير من أبناء الغرب ويتخلون بسهولة عن قيم وعقائد كانوا قبل أيام يعتنقونها.

بل إن الغرب يلهث بسرعة وراء أفكار وفلسفات تجريبية لم يثبت صحتها ويجعل منها قيماً وأيقونة مقدسة. فعندما ألقى فرويد بنظرياته الإباحية نتج عنها أن الغرب بكليته تقريباً صار خلال زمن قصير مجتمعاً إباحياً وجعل من آراء فرويد الأيقونة المقدسة الجديدة التي تتحكم بقيمه الإجتماعية كلها. ويعتبر سيغموند فرويد مؤسس الإباحية التي انطلقت (بفضله) في أوروبا وانتشرت في الدول الغربية كلها بل وامتدت حتى وصلت إلى الصين واليابان بشكل ضعيف. مثل هذا الانقلاب القيمي لا يمكن أن يحدث في البلدان الإسلامية فعندنا يعتبر الإسلام والقرآن هو

الميزان والمقياس الوحيد الذي بموجبه نقيس كل قيم جديدة ويتم الحكم عليها تلقائياً في داخل كل مسلم وفي كل بيت وفي كل مؤسسة فكرية إسلامية ويتم نفيها فوراً لأنها تخالف القيم الإسلامية والقرآنية وتخالف الثوابت المتعامل بها عند المسلمين. وبهذا يصبح الشرق المسلم أكثر حكمة وعياً وأقل تهوراً من الغرب المنفلت الخالي من الضوابط الدينية.

ينطلق الغرب بسرعة وراء الفلسفة الجديدة، وقد حدث ذلك مع الوجودية وهذه والاشتراكية والشيوعية وهذه السنوات ظهرت فلسفات التفكك والتشتت والتدمير لكل ما هو قيمة ولكل الثوابت والضوابط وينشرها فلاسفة التفكيكية ويلهث وراءهم جيل الشباب الغربي. ولا شك بأن الغرب سيكتشف خطأه في اختيار الفلسفة الجديدة بعد عقود قليلة. لقد انتقلت إلى مجتمعاتنا المسلمة تلك الفلسفات الغربية فرأينا الوجودية والشيوعية والماسونية والحداثة تنتشر بخجل عند القلّة من المسلمين وبنفس فقد ظلّ هؤلاء أنفسهم يقيسونها بمقياس الإسلام ويجرون عليها تعديلات كثيرة ويحاولون أسلمتها ومحاصرتها، واستمرت هذه المحاصرة والتضييق على تلك الفلسفات حتى بادت وانقرضت تماماً وزالت من المجتمعات الإسلامية. فالإسلام يحوسل كل ما لا يتفق مع مبادئه ويبعده وينفيه، وبنفس الوقت فهو يستقطب كل ما يعزز مبادءه وقيم وأخلاق الفرد. ولعلّ من عظمة الإسلام أن هذه المهمة تسير من تلقاء نفسها بشكل آلي، أي أن الإسلام هو نفسه يمتلك قدرة (نعتقد بأنها قدرة إلهية موضوعة كامنة في الإسلام) تجعل منه قادر تلقائياً على حفظ نفسه. وهذا ما يفسّر قوله سبحانه وتعالى: ((لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)) سورة الحشر 21،فالقرآن هو الآيات التي نزلت على البشرية، وهي نزلت بالفعل وهي تمتلك قدرة وقوة تخشع منها الجبال، وهذه الآيات هي أحكام وقوانين الإسلام فهي أيضاً تمتلك قدرات تحافظ على الإسلام وتحوسل كل ما يخالف عقائده وقيمه. ومثالنا على ذلك أننا إذا قلنا عبارة (استنساخ البشر) سيذهب على الفور كل مسلم يسمع هذه العبارة ليحكم لنا وفق

عقيدته ووفق أحكام دينه ما رأي الإسلام بالاستنساخ. هذا الانطلاق الفوري نراه عند المسلمين وحدهم وهو آلية لاشعورية تمكّنهم من الحفاظ على أسس وعقائد الإسلام. وهذه الآلية ليست موجودة عند الغربيين وهم لا يحتكمون للمسيحية أو لأيّ عقيدة أخرى بهذه الطريقة عند سماعهم نفس العبارة.

في برنامج حواري إذاعي تحدث السيد هيثم من سورية 2 شباط 2007 وقال: "أنا مسيحي وأنا أؤمن بأن الله واحد وأن محمداً هو رسول الله وأحافظ على مسيحيتي رغم إيماني بحقيقة الدين الإسلامي". مثل هذا الخطاب ينطبق على الكثير من المسيحيين العرب فهم أبناء الإسلام ونتاجه، وبشكل من الأشكال يمكن اعتبارهم مسلمين.

وفي تصريح صحفي آخر قالت الفنانة السورية المسيحية جيني إسبر إنها وضعت الحجاب في حضرة مفتي سوريا خلال تكريم لافت لها احتراماً له، مشددة على أنها كـ"فنانة مسيحية" لا تفرّق بين مسلم ومسيحي، أو بين الإنجيل والقرآن فكلها كتب مقدسة، وذلك في سياق تعليقها حول تقديم المفتي القرآن هدية لها. وأكدت أن تكريم المفتي لها "أثّر عليها كثيراً، وجعلها تنسى مسيحيتها، وتشعر بأنها إنسانة فقط." وعن تكريم المفتي لـ"فنانة مسيحية"، أضافت "المفتي قال أنا مفتي المسيحيين والمسلمين، وأنا مفتي الجمهورية ولست مفتي المسلمين فقط، وبالتالي -تتابع جيني- من المعيب جداً الحديث عن التفرقة بين الأديان، أنا مسيحية، لكن لا فرق بالنسبة لي بين مسلم ومسيحي والإنسان بقيمته وعمله". وبخصوص وضعها الحجاب، قالت : "طبعاً وضعت الحجاب احتراماً للمفتي، وكان غطاء رأس لأني أقابل شخصية مهمة. وعندما أدخل الكنسية أضع حجاباً احتراماً لمكان الكنيسة المقدسة." وأكدت أنها كانت الشخصية الوحيدة التي قدم لها القرآن هدية، وقالت "شخصية سماحة المفتي أثرت عليّ. أنا لست فقيهة بالدين، وشخصية المفتي تجعلني أنسى مسيحيتي، وأحس أني إنسانة فقط وهذا أمر كبير."وتابعت "القرآن بالنسبة لي مثل الإنجيل، وسبق لي أن قرأته، وأريد أن أتعمق فيه أكثر ككتاب مقدس، لأنه مقدم من شخص بارز هو سماحة المفتي."

رؤية الأديان الثلاثة للإله وللإنسان

تفسيرات وتطورات في طرق التفكير الديني وفي عقائده. فكل عقيدة سماوية تطرح نقطة تقاطع بين الخالق والمخلوق. وتطرح إشكالية رئيسية وهي: كيف يخاطب الخالق المخلوقات، فالخالق مطلق وهذا لا مجال للشك فيه انطلاقاً من الظواهر الكونية اللامتناهية والتي تذهل الإنسان، والمخلوقات نسبية ولا يمكن على الإطلاق منحها صفة المطلق، فهي بائدة وزائلة، وهذه حقيقة لا يمكن الشك فيها أيضاً، وبالتالي فلا يمكن منح المخلوقات صفة المطلق أو الألوهية، فهل التزمت الأديان الثلاث بهذا المعيار الدقيق؟

في حالة الإسلام نقطة التقاطع بين الخالق والمخلوقات ليست الرسول محمدَ عليه السلام (**وما محمّد إلاّ رسول**) سورة آل عمران 144، ولا أي فرد من المسلمين، وإنما هي القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى أرسل القرآن هداية للعالمين، والرسول عليه الصلاة والسلام ليس تجسيداً لله وإنما هو رسول وحسب، فهو مجرد إنسان يحمل الرسالة. والقرآن هو اللوغوس أي الكلمة التي تحمل المعنيين في آن معاً، كلمة الله إلى الناس جميعاً، وهي أيضاً كلمة حقيقية بالفعل، كلمة مكتوبة في كتاب يمكن لأي إنسان أن يقرأه ويفهمه. وهذه الكلمة تحمل صورة القداسة، ورغم أنّ هذه الكلمة هي نقطة التقاطع الوحيدة بين الخالق والمخلوق، فكان من روعة الإسلام الحرص الشديد على ألا يتم تحميل القرآن نفسه صفة الحلولية، ولذلك فقد ميّزت الآية الكريمة بين القرآن الذي هو في اللوح المحفوظ، والذي هو في كتاب مكنون وبين نسخة نتداولها نحن ونكتبها ونطبعها على الورق، فهذه النسخة التي نتداولها تحمل نفس النص القرآني المقدس وبنفس الوقت فهي لا تنطبق عليها نفس شروط التقديس كما لذلك النص الذي هو في اللوح. (**إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لايمسّه إلا المطهرون**) سورة الواقعة 77 ـ 79..

والرسول هو مجرد إنسان رغم أن هناك محاولات حلولية داخل الإسلام لتأليهه، ومن هنا الحديث عن التبرك بعرقه أو بقبره، وهو إلى جانب ذلك خاتم المرسلين، بمعنى أن الله أرسل لنا الرسالة وقطع على نفسه وعداً بأن يرعانا فهو

رحمن رحيم، ولكنه لن يتدخل في التاريخ الذي أصبح مجال حرية الإنسان، " **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**" سورة الكهف 29. وتأتي محاولات عند بعض المسلمين لتأليه شخصيات إسلامية أخرى غير الرسول كأفراد من آل بيته وأحفاده، وهذه المحاولات فشلت عبر التاريخ البشري، وإن بقي لنا بعض من غبارها فهي آيلة للانتهاء والسقوط، فالإنسان البشر لا يمكن أن يحمل صفة المطلق لأنّ ذلك يفسد المعادلة الكونية، كما أنه لا يمكن لأي من المسلمين أن ينزل صفة المطلق العظيم ويمنحها لفرد من البشر.

فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على أن يرتفع على ذاته أو يهوي دونها، على عكس الحيوانات، فالحيوانات لا تملك إلا أن تكون حيوانات، أما الإنسان فقادر على أن يرتفع إلى النجوم أو أن يغوص في الوحل، والإنسان قادر على أن يرتفع فوق المادة ويسمو ويتطلع إلى الله غير المنظور، وهذا التطلّع هو عامل إيجابي يساهم في الحفاظ على توازن المعادلة الكونية ولا يمكن أن يستغلّه الإنسان في تخريب توازنها. والقرآن هو رسالة مقدسة مدونة في كتاب ليقرؤها من يشاء. وهو نقطة التقاطع والوسيلة التي تصل بين الخلق والخالق في الإسلام.

ولا تمتلك المسيحية نموذجاً معادلاً للقرآن الكريم بأي شكل من الأشكال، فالأناجيل هي حسب المسيحية روايات لتلامذة المسيح ورسله، وبذلك فهي لا تمتلك نقطة التقاطع هذه التي تصل بين الإنسان والله. وقد أتاها الحلّ الإلهي بأن تؤمن بالقرآن الكريم وتعتنق الاعتقاد به وبالإسلام ونبيه ويصبح القرآن لها هو نقطة التقاطع بين الخالق والمخلوق، وبذلك تتخلّص من مشكلة الفراغ التي تعاني منها، وما حصل عبر التاريخ أنّ الكثير الكثير من المسيحيين آمنوا بالإسلام وبذلك عثروا على الحلول الصحيحة. لكن المسيحية التي استمرّت ذهبت تتخبط في البحث:

ونتيجة لهذا البحث حلّت المسيحية مشكلة التواصل بين الخالق والمخلوق بأن جعلت نقطة التقاطع هي شخص المسيح الذي جعلته اللوغوس وابن الإله، الذي ينزل إلى الأرض ليفدي البشر بدمه، وما هذا إلاّ تجسيد للخالق في شخص هو الإنسان، مما أدى إلى ظهور إشكالية جوهرية جديدة لم يحسب لها الحسبان، لأنه حين نزل (ابن الإله) إلى الأرض وتحول اللاهوت إلى ناسوت، والإلهي إلى إنساني فإنه بذلك

دخل اللاهوت في إطار الزمان الدنيوي المادي واقتحم التاريخ الإنساني، فتداخل التاريخ المقدس بالتاريخ الزمني. وتداخل الخالق في الخلق، وتداخل المطلق في النسبي، وكل هذا لا يمكن أن يتحقق في المفهوم التاريخي الذي هو علم، ولا في المفهوم الزمني الذي هو علم متوازن أيضاً.

وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية أن تحل هذه الإشكالية بأن جعلت الحلول يتركز في فرد واحد هو المسيح وليس في جماعة بشرية، وأوجدت صيغة حلول إلهي بالمسيح انتهى بالصلب وصعود المسيح وعودته إلى أبيه في السماء. وهذا الشكل للحلول هو مرحلي ويشغل حيزاً قليلاً من التاريخ البشري، وهذا الحيّز كان مرحلة زمنية خاصة بعيداً عن التاريخ البشري ككل كما أرادت له المسيحية أن يكون. وتم إقفال ذلك الزمن المؤقت لكي لا يتداخل مع الزمن البشري كله بحادثة الصلب.

وتستند العقيدة المسيحية إلى حادثة الصلب هذه التي بمفهومها يتم إقفال تاريخ التداخل بين البشر والإله، لكن الكنيسة لم تقف بعد ذلك عند هذا الحدّ بل تطورت داخلياً وذاتياً. وجعلت من نفسها جسد المسيح وأصبح البابا هو صاحب العصمة بمعنى أنها أحاطت الحلول و"المقدس" بحواجز حتى لا يتداخل التاريخ المقدس بالتاريخ الزمني. وبهذا السلوك الكنسي تم فتح باب التداخل التاريخي (المقدس والزمني) من جديد. وتم التصريح لهذا التداخل بالاستمرارية، وهي استمرارية التداخل بين الإلهي والبشري عبر الأجيال اللاحقة والمستمرة بين البشر، وهذا الفتح لا نهاية له حسب التصور المسيحي اللاحق بل إنه سيضطرها لإقحام آراء أخرى أكثر خطراً وابتعاداً عن الوحدانية.

فقد قسّمت المسيحية هذه العالم إلى قسمين، قسم ديني يضمّ رجال الدين من كرادلة ورهبان، وهؤلاء يعبّرون عن التداخل الزمني بالمقدس، وقسم علماني يضم بقية البشر وهؤلاء تم إقصاؤهم من ذلك التداخل، ولكي لا يتمكن أحد من البشر المبعدين عن ذلك التداخل المقدس من تقديس نفسه أو ادّعائه القدسية، فقد تمّ تعقيد المسألة ووضع قيود كنسية ثابتة، إذ لا يستطيع أي مسيحي الادعاء بالقدسية إلا بعدما تنعقد لجنة دينية وتقوم بتعيينه قديساً أو قسيساً أو بطريركاً أو

بابا. ثمّ إن هذه القدسية التي يتم منحها لهؤلاء ليست سوى الاعتراف بحلول الإله فيه والتصريح له بتمثيل هذا الحلول. وهذا التصريح الكنسي هو بالمعنى المدني والسياسي الذي نفهمه اليوم انتخاب أو انعقاد مجلس استشاري تمنح بموجبه القداسة والحلول الإلهي لشخص ما. ويمكننا أيضاً أن نتصور وجود ضغوط ونفوذ من الحكام والأحزاب السياسية على هذا المجلس الكنسي الذي يختار أن ينزل الحلول الإلهي بشخص ما، وأن يجعله مقدساً، وعلينا أن نتذكّر بأن من قاموا بإنزال الحلول الإلهي بفرد وشرّعوا له ذلك الحلول هم أنفسهم لا يمتلكون القدرة على منح أنفسهم ذلك الحق بالحلول.

ولكن تطور الفكر المسيحي والإصلاح الديني فتح أبواب الحلول على مصراعيها، فخرج اللوغوس من الكنيسة وأصبح الشعب موضع الحلول، وعبّر هذا عن نفسه بعقيدة إلغاء الكهنوت الكنسي وظهر مفهوم كهنوت كل المؤمنين، بمعنى أن المؤمن يمكنه التواصل مع الإله مباشرة، لسبب بسيط وهو أن الإله قد حل فيه. وهذه هي الرؤية اليهودية التي استطاع البعض أن يخلطها بالعقيدة المسيحية. ظهر ذلك المفهوم في بدايته عند مارتين لوثر الذي تمرد على البابا وعلى سلطة الكنيسة وادّعى لنفسه قديساً مسيحياً، ودعا المسيحية للنظر بكل نصوص العهد القديم (اليهودي) وإلى اعتناق مبادئه على أسس مسيحية: جاءت تلك الدعوة في فترة تخبّط المسيحية وفي زمن الفراغ الفكري المسيحي، حيث قامت محاكم التفتيش بإحراق غاليليو وبمحاولة مسح الإسلام عن أوروبا ومسح فكره ومنع اختلاط العقائد الإسلامية بالمسيحية، بمحاولته سدّ ذلك الفراغ ابتدع مارتن لوثر ربط المسيحية باليهودية، وبالفعل فقد ارتبطت المسيحية باليهودية منذ تلك العقود وفي زمننا هذا لا نجد بيتاً مسيحياً في العالم كله إلا ونعثر فيه على نسخة من العهد القديم يتم التعامل معها على أنها نصوص مقدسة مكملة للتعاليم المسيحية.

من هنا جاء إعجاب البروتستانت الشديد بالعهد القديم، ومن هذا الإطار منحت المسيحية الغربية ليهود العالم صفة القدسية وصفة الحالة الاستثنائية وتم وضعهم في منزلة عليا على أنهم خارج التاريخ الزمني وداخل التاريخ المقدس، بل ينظر إليهم على أنهم الضرورة الحتمية التي تمهّد لظهور المسيح وللخلاص.

وعندما ظهرت الحركة الصهيونية في أوروبا تطور هذا التداخل المسيحي اليهودي حتى أصبح تداخل مسيحي صهيوني. وساهم في تعميق هذا التداخل ظهور فلسفة صهيونية دينية جديدة اعتقد الغرب المسيحي بأنه بحاجة لنتاجاتها الفكرية، فتقبّلت المسيحية هذه النظريات الجديدة واستمرّ التداخل المسيحي الصهيوني الذي أنتج تفاعل سياسي بين الطرفين ومن هنا الدفاع الغربي المستميت عن الصهيونية وعن ممثلها (غسرائيل). إذ أصبح الاعتقاد المسيحي الغربي يعتبر بأن الصهيونية هي حالة مقدسة وهي حالة الحلول الإلهي بشعب هم اليهود، والحلول الإلهي بدولة هي إسرائيل، والحلول الإلهي بمكان هو حدود تلك الدولة المزعومة. وهذا ما يفسّر التحريم الغربي الحكومي والكنسي التام لمناقشة موضوع المحرقة النازية المزعومة. فالغرب يبيح انتقاد المسيح وانتقاد الحاكم والسياسة الحكومية ويمنع بشدة الخوض في انتقاد المحرقة، فقد تم تنصيب اليهود على أنهم حالة مقدسة حقيقية. وتم وضعهم فوق أي نقد باعتبارهم خارج التاريخ البشري، وتم جعلهم ممثلي الحضور الإلهي على الأرض وبالتالي داخل التاريخ الإلهي المقدس. وعندما تم تقديس اليهود كشعب وضعت ماتسمى بـ (إسرائيل) فوق كل نقد أو معيار، ولهذا يباح لها مخالفة القوانين والمعاهدات والمعايير الدولية والإنسانية، فهي المقدس وهي الحلول الإلهي الضروري على هذه الأرض ولذلك اعتبر استمرارها ضرورة حتمية، فاستمرارها يعني في المفهوم المسيحي الصهيوني استمرار الحضور الإلهي على الأرض. ولهذا السبب يغضب العالم كله حين تنشط حركة حماس وحزب الله وحين يهدد أحمدي نجاد بإبادة (دولة إسرائيل).

ومع تزايد معدلات الحلول في الإنسان يزداد ذوبان الجزء في الكل والكل في الجزء، وذوبان الإله في الإنسان والإنسان في الإله، إلى أن يصبح الإله مجرد صوت داخلي يسمعه الإنسان الفرد، أي أن التماهي بين الخالق والمخلوق يصبح كاملاً. بدأت هذه المفاهيم عند الصهاينة وتفشّت في المسيحية الصهيونية الواسعة الانتشار في العالم، واليوم تكثر الحركات المسيحية التي تعلّم أفرادها بأنهم يمثّلون الحضور الإلهي وبأن الله حاضر فيهم بل وبأنهم ينطقون بكلام الله ويتصرفون بأعماله.

والنموذج الحلولي يفسر ظهور التفسيرات الحرفية، فهي تنطلق من إلغاء المسافة بين الخالق والمخلوق، ومن ثم إلغاء المسافة بين المقدس والزمني مما يعني تطابقهما، ولذا يصبح التاريخ الذي يرد في الكتاب المقدس هو نفسه التاريخ الزمني الذي يدور في العصور البشرية كلها والذي نعيش بعضه اليوم، وتم جعل ما يحدث الآن أمام عيوننا هو ذاته ما حدث من قبل، أو جاءت نبوءاته في الكتاب المقدس. ومن هذا التفسير تم اعتبار المحرقة النازية خارج التاريخ البشري وداخل التاريخ المقدس، بناء على أن الذي أحرق في الأفران هو شعب مقدس قد حلّ به الإله، أي أن الإله نفسه قد أحرق بحرق هذه الأجساد، وإذا تابعنا التفسير سنكتشف بأن المحرقة المزعومة لم تكن سوى تتمة للنظرية الفلسفية الصهيونية وبالتالي فهي ضرورة لتاريخ اليهود الديني المقدس، ومستحيلة الحدوث في التاريخ البشري، وهذه الضرورة هي في حدّ ذاتها الدليل على أن المحرقة أكذوبة. ويتمادى المفسرون والمتفلسفون اليهود في التحليل فيعتبرون أن حدث المحرقة هو نهاية التاريخ اليهودي. وأنه هو في الوقت ذاته بداية التاريخ اليهودي، وبالتالي فهو لحظة خارج التاريخ الزمني وداخل التاريخ المقدس، وهو لحظة انعدام الزمن.

من منظور اليهودية، فإن الشعب اليهودي هو ذاته نقطة التقاطع بين الخالق والمخلوق وموضع الحلول والتجسد الإلهي. لقد حل الإله (المطلق) في الشعب اليهودي (النسبي) الذي أصبح شعباً مختاراً، له حظوة خاصة عند الإله، بل وتحول الشعب اليهودي في هذا المنظور إلى إله وأصبح تاريخه مقدساً لا إنسانياً، وقد استطاعت الصهيونية أن تلزم المسيحية الغربية بهذه المعتقدات، فيما ظلّت المسيحية العربية بعيدة تماماً عنها.

وفي بعض الأحيان يشار إلى اليهود بأنهم" شعب مقدس" و"أمه الروح" بل وأحياناً "اللوغوس" أي الكلمة، كما أن القبالاه (وهي التراث الصوفي الحلولي اليهودي الموغل في الحلول) ترى الإله باعتباره "السفيروت" أو التجليات العشرة النورانية، وترى أن الشعب اليهودي هو السفيروت العاشر، أي أنه جزء عضوي من الإله، وهو الحلقة الأخيرة في التجليات العشرة النورانية. فهو جزء من الإله ولكنه يوجد في هذه الدنيا، وهو الصلة بين الإله وبقية شعوب العالم، وهكذا محيت

ثنائية الإله والإنسان تماماً بالنسبة للشعب المختار، بل وتذهب اليهودية إلى أبعد من ذلك فتعتبر بأن الإله كان يعيش بين شعبه وكان قادراً على الحضور والتمثل بشخصه مع شعبه وأنه اليوم تبخّر وتبعثر وتحول إلى شذرات تماهت وضاعت وتلاشت، وبأن الإله تلاشى مع لهب نار المحرقة، وتبعثر في الفضاء فلا يمكن جمعه وبذلك فهو عاجز اليوم عن الحضور والتمثّل مع شعبه ويصبح اليهود أقدر من الإله نفسه على الحضور في هذا الكون، فهم صورة الإله القادرة على الحضور والتمثل في هذا العالم، وهم أجدر من الإله نفسه بالألوهية، ومن هنا تمّ وضع اليهود في الغرب حسبما رغبوا هم أي في مكان القدسية غير القابلة لأي انتقاد أو مجادلة، بل وينظر إليهم على أنهم الحضور الإلهي في هذا الكون، وعلى أنهم الضرورة الموجبة لاستمرار العقيدة المسيحية ولاستمرار حياة البشر على الأرض، ونصبح اليوم أمام معضلتين رهيبتين تخالفان الأعراف البشرية: فالمعضلة الأولى والتي لابدّ من تصحيحها تكمن في المفاهيم اليهودية المنحرفة للإله، والمعضلة الثانية هي انتقال هذه المفاهيم إلى المسيحية الغربية، ولصيانة تلك المنزلقات لابدّ من التدخّل الفكري الإسلامي بقوة داخل وفي صلب الساحتين.

فحين يذوب الجزء الإنساني في الكل الإلهي يفقد الإنسان إنسانيته، ولذا فإن تاريخ الشعب اليهودي الزمني هو ذاته تاريخه المقدس، فتاريخ الملوك وتاريخ الأنبياء هو نفسه تاريخ الشعب اليهودي، أي أن أزمنة الأحداث المذكورة في العهد القديم يجري التعامل معها باعتبارها الزمن اليهودي الحاضر .

يدور الوجدان الصهيوني في هذا الإطار، فهو لا يميز بين التاريخ الزمني والتاريخ المقدس، وتنطلق الخريطة الإدراكية الصهيونية من هذا الافتراض، وهذا بالفعل كارثة معرفية وأخلاقية وفكرية، تبدت في سلوك استعلائي وانطوائي بلغ ذروته في الصهيونية، وعلى هذا يمكن الحكم على الصهيونية بأنها الكارثة الأخلاقية التي أصابت البشرية وبأنها أخطر حالة فكرية عرفتها البشرية، وبأنها أيضاً أكبر خطر كارثي ابتليت به المسيحية.

وقد تأثرت الدراسات التاريخية في الغرب بهذه الرؤية، فكثير من المؤرخين ينطلقون من التاريخ المقدس الذي ورد في التوراة، ثم يجدّون في البحث عن الآثار

للبرهنة على ما جاء في التوراة التي هي التاريخ المقدس، وضمن هذا الإطار تأتي مساعي الصهيونية لتقديس المكان على أنه يهودي في المنطقة الفلسطينية، وتندرج أسرئلة أسماء المناطق والقرى الفلسطينية ضمن هذا الإطار. ولكن علم الآثار الإسرائيلي الجديد بدأ يتخلص من هذه الأساطير، فبعدما عجز المنقبون عن العثور على أي نوع من الآثار اليهودية التي يمكن أن ترتبط بما جاء في نصوص العهد القديم. بل إنما حدث هو محاولات لتزوير قطع أثرية كثيرة جداً تم اكتشاف زورها وانفضاح أمرها وبالتالي فقد اعترف المؤرخون والمنقبون اليهود بحقيقة تزويرها وبحقيقة أن الآثار التي عثر عليها تكشف زور العهد القديم وزور أحداثه ووقائعه التاريخية. وإن كافة التنقيبات اليهودية في الأراضي الفلسطينية أثمرت على العثور على آثار إسلامية وقديمة تثبت زيف نصوص وأحداث العهد القديم.

ويظهر الاختلاف بين الرؤية القرآنية للتاريخ والرؤية التوراتية في قصص الأنبياء، إذ يلاحظ أن القصص "التاريخي " الذي ورد في القرآن لا يرد كاملاً، ونلاحظ في سورة الكهف مثلاً أنها تعمّدت تجاهل عدد المؤمنين الذين ناموا في الكهف، (**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم**) سورة الكهف 22، كان من الممكن بيسر أن يذكر عددهم الحقيقي، لكن الحكمة الإلهية تعمّدت عدم الخوض في العدد لأنّ مغزى الحديث عن أهل الكهف هو إيمانهم ومقدرة الله على جعلهم نيام طوال مئات السنين، وحتى لا يتداخل الزمن التاريخي بالزمن البشري. فلا يذكر القرآن سوى بعض النقاط والوقائع ذات المغزى الأخلاقي في تلك القصص، إذ الهدف من هذه القصص ليس تقرير واقعة تاريخية أو السرد التاريخي، وإنما بعض المعايير الأخلاقية، وحتى لايصبح التاريخ مقدساً عند المسلمين ولكي لا يحدث تداخل زمني بين القصة ورجالها الأنبياء وبين الزمن المعاصر فقد تعمّد القرآن الكريم طريقة التلميح والسرد القصصي، ولكي لا تتداخل شخصية الرسول محمد نفسه مع الزمن الكليّ فقد اكتفى القرآن بمخاطبته في بعض الآيات ولم يستثنه كبشر إلى حدّ القدسية بل لم يذكر القرآن اسمه صراحة سوى بضع مرات. وكذلك الأمر بالنسبة للمؤمنين والمسلمين الأوائل ولآل بيت الرسول، ولم يذكر القرآن الكريم اسم أمّ الرسول ولا أسماء الصحابة كي لا يتداخلون كأشخاص في العقيدة وكي لا يتسنّى لأحد أن يؤلههم، وبنفس الوقت فقد ذكرت أسماء الأنبياء السابقين مرات

عديدة: عيسى وأمه مريم وموسى ويوسف وإبراهيم وإدريس عليهم السلام.

هذا على عكس الرؤية التوراتية، إذ ترد تواريخ الملوك كاملة، فالتاريخ الزمني هو ذاته التاريخ المقدس، والشعب اليهودي هو موضع حلول اللوغوس، الذي يحلّ محل ابن الله في المسيحية ومحل القرآن في الإسلام.

ويخطئ بعض المسلمين الذين يعتمدون في سرد قصص الأنبياء كاملة على نصوص التوراة. ويتمادون في شرح القصة وصفات الأنبياء، ويتجاوزون في ذلك النص القرآني نفسه، وبذلك فهم يدخلون في تيه التاريخ المقدس للأنبياء وفي الحلول الإلهي بأنبيائه حسب الرؤية اليهودية فيجعلون من التاريخ مجالاً لا يقدر التاريخ نفسه على استيعابه. وفيما يعتقد هؤلاء المسلمون أثناء بحثهم وتنقيبهم في قصص التوراة بأنهم يزيدون المعرفة عند المسلمين ويستخلصون الدروس المفيدة، فهم في حقيقة الأمر يتطاولون على النص القرآني الذي اكتفى بذكر بعض الدروس المفيدة والمختارة من قبل الله نفسه، ثمّ إن قصص الأنبياء المطولة السرد والتفاصيل الواردة في نصوص العهد القديم ليست على الإطلاق موثقة وهي غير صحيحة ولا يمكن أخذ تفاصيل ودروس منها لأنّ العهد القديم كله أكاذيب من وضع اليهود أنفسم.

يتعين على الباحث التاريخي المدقق أن يتناول التاريخ الزمني بمعزل عن التاريخ المقدس، ولتكن نقطة البدء من التاريخ الزمني لا التاريخ المقدس. ويلاحظ أنه ظهر اتجاه في بعض الأوساط الإسلامية نحو دمج التاريخ المقدس بالتاريخ الزمني، حين بدأ البعض يتصور أن تاريخ المسلمين هو تاريخ إسلامي، وهذا خطأ جسيم يجب التنبه إليه. فهذه الرؤية ليست سوى نوع من الرؤية الحلولية. ترى أن الله قد حل في تاريخ المسلمين وتجسد فيه، فاكتسب هذا التاريخ قداسة تجعله غير خاضع للنقد والتساؤل، أي أنها رؤية غير تاريخية للتاريخ، تمزج المقدس بالزمني بحيث يتوحدان فتسود الواحدية وتصفى كل الثنائيات ويصبح التاريخ كتلة واحدة مصمتة متجانسة، وعندئذ يتعذر البحث فيها وتناولها بحرية، ويعتمد بعض المسلمين على حديث قدسي منقول عن الرسول جاء فيه قوله (لا تلعنوا الدهر فهو أنا). وإن صحّ هذا الحديث فيتعين النظر فيه ودراسة معانيه بدقة وبوعي، كما يجب النظر في معنى الآية الكريمة التي تقول: (إنّ يوماً عند ربّك كألف سنة مما تعدّون) سورة

السجدة 5 وهي تعني بأنّ الزمن الإلهي هو غير الزمن البشري، وأن مقاييسه مختلفة تماماً وبالتالي فإن التاريخ الإلهي هو غير التاريخ البشري ويتعذّر الخلط بينهما.

وإذا كانت الحلولية تؤدي إلى ذوبان الأجزاء في الكل، فإن هذا التاريخ تتساوى فيه التفاصيل، وستظهر بعد ذلك مقولة واحدة وهي أن المسلمين محلّ رعاية خاصة من الله. وهذه الرؤية لا تختلف كثيراً عن الرؤية اليهودية الحلولية للتاريخ التي أفرزت الصهيونية والعنصرية، وهي أبعد ما تكون عن الصحة.

إنّ انعتاق المسلمين من القيود التي تأسرهم داخل تاريخ مقدس يعني تحررهم الحقيقي من أغلال وضعها اليهود لأنفسهم. وهذا التحرر يعني أيضاً حرية كاملة يمتلكها المسلم دون غيره وهي الحرية التي من خلالها تتمثّل كافة عناصر التحرر الحقيقي، فيصبح المسلم وحده هو الذي يمتلك الحرية بكافة معانيها.

إنّ تاريخ المسلمين في حقيقته ليس تاريخاً إسلامياً إذاً. هذان أمران مختلفان، فالتاريخ الذي ورد في القرآن يعطينا مجموعة من القيم والتقارير نحكم بها على التاريخ الزمني، والتاريخ الزمني للمسلمين هو مجال الفوضى والمعارك والسقوط والانتصار وهو حركة أفراد وشعب وهو نتاج قرارات فردية إنسانية، وهو أيضاً حركة سياسية وسلطوية، وبناءً على هذا المفهوم فالمسلم يرى في الشخصيات التاريخية الإسلامية مجرد أشخاص سياسيين لا كهنة ولا قديسين ولا آلهة منزّلين، وبذلك يصبح عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاوية وغيرهم مجرد أشخاص ومحاربين وقادة سياسيين يمكن الاستفادة من أعمالهم وأقوالهم ويمكن رفض أو انتقاد بعض تصرفاتهم: فنحن لا نلتزم بالتقيد ولا بتقديس أحد منهم وهذه هي الحرية التي يمتلكها كلّ مسلم وهذا هو الانعتاق من قيود تقديس التاريخ.

تاريخ البشر في الزمان هو تاريخ زمني، ومفهوم "خاتم المرسلين" الإسلامي هو في واقع الأمر وعد إلهي بأن الله سبحانه وتعالى سيترك الإنسان حراً في التاريخ. فقد اكتملت الرسالة، ويمكن للإنسان أن يصل إلى الخلاص والهلاك بنفسه. فالتصور الإسلامي للطبيعة البشرية تصوّر مركب يرى الإنسان داخل إطار تاريخي ولكنه قادر على تجاوزه.

فالمسيحية تذهب إلى أن هناك "خطيئة أولى" هي خطيئة آدم وحواء، وأن

البشرية بأسرها تعاني من هذه الخطيئة اللصيقة بالوضع الإنساني ذاته، ولذا أصبح الخلاص مستحيلاً بواسطة الفعل الإنساني، ولذا يحتاج الإنسان لرحمة الإله عن طريق التدخل المباشر في التاريخ الزمني.

ولعله لهذا السبب كان لابد من التجسد، أي أن ينزل الإله من سمائه ليصبح بشراً وكان لابد أن يصلب المسيح - ابن الإله حسب التصور المسيحي- ليفدي بدمه البشرية ويغسلها من خطاياها، ونكتشف بأن هذه الرؤى المسيحية المتعددة والتي تمت صياغتها بسبب الضرورة لم تكن سوى محاولات للصيانة وللتعويض عن الخطأ الفكري المسيحي القديم والذي بموجبه تم الخلط بين الإله والإنسان، وإنّ محاولات الصيانة هذه هي ترقيعية لا جذرية فضمنها تمّ السماح للفكر الصهيوني بأن يغزو المسيحية من الداخل، ويجري السماح لغيرها باستمرار بالتمادي في تحريف المسيحية، وسيستمر هذا التداخل والتطاول على المسيحية الغربية إلى أن تعترف بالخطيئة التي ارتكبتها وتتراجع عنها، وتلك هي المزج بين المقدس الإلهي وبين البشري الزائل. وإلى أن تتراجع عن فكرة الحلول الإلهي بالمسيح عليه السلام.

وتتمة لتحليل المشكلة التي ركّبتها المسيحية على نفسها كان لابد للمسيحية من طقس التناول، أي أن يتناول المسيحي الخبز الذي يتحول حسب التصور المسيحي إلى جسد المسيح ودمه، بحيث تجري دماء الله في الجسد الإنساني فتغسل خطايا البشر، وعند اليهود طقوس مشابهة لهذه وهي طقوس تناول الفطير المقدس المخبوز بالدم والذي تحذّر اليهودية إطعامه لغير اليهودي، ونلاحظ هنا بأن الخلط بين الإلهي والإنساني والذي هو حالة مشتركة عند المسيحية واليهودية أفرز عند كليهما نتائج وطقوس مشتركة ومنها هذا الفطير المقدس عند كليهما.

ولتعويض الخلل كان لابد للمسيحية من اختلاق مؤسسة الكنيسة - التي توجّب ترقيتها لتصبح جسد المسيح- ليصل الإنسان عن طريقها إلى الخلاص وليصبح أن لا خلاص خارج الكنيسة، كلّ ذلك نتج عن أعباء خطيئة الحلول نفسها.

ولكن إذا كانت الخطيئة لصيقة بالطبيعة البشرية وإذا كان لا خلاص

منها عن طريق الفعل الإنساني داخل الزمان حسب المسيحية، فهذا معناه أن العالم هو وادي الألم مما يعني إلغاء التاريخ وإلغاء الأمل وبالتالي لا سعي ولا عمل.

مفهوم الخطيئة في الإسلام مختلف تمام الاختلاف، فلا يوجد سقوط كامل ولا خطيئة أولى، وإنما هناك نسيان ومبادرة وسعي بشري وعمل، فالخير كامن في فطرة الإنسان ولكنه ينساه **"نسوا الله فأنساهم أنفسهم"** سورة الحشر 19. وإذاً فالخطيئة عند المسيحية واليهودية أفرزت القنوط واليأس فسعى أولئك لإيجاد حلول مهدئة، لكن في حين ليس في الإسلام خطيئة ملزمة تحرر المسلم وانطلق في العمل والأمل والسعي.

ولذا فالقرآن هو الذكر، حتى يتذكر الإنسان الله، وحين يتذكره فإنه يخرج من حمأة المادة ليصل إلى فضاء إنساني تاريخي فسيح يمكّنه من أن يختار فيه، والإنسان في الإسلام ينجو بفضل عمله وسعيه الأمر الذي يحبّذه عليهما بنشاط.

في هذا الإطار يمكن للإنسان أن يخطئ ثم يتوب ويقوم بالعمل الصالح فيغفر الله له، فالله يحب التوابين، وفي هذا الإطار أيضاً تم تحديد المستوى الأقصى الذي يبلغه الإنسان، بحيث لا يمكنه ادّعاء القدسية على الإطلاق، فالرسول نفسه بشر يخطئ ويصيب في الأمور الدنيوية، **(وما محمد إلاّ رسول).** سورة آل عمران 144.

هذا يعني أن التاريخ (الزمان والدنيا) هو مجال الخطأ والتوبة، وهو مجال الفعل الإنساني الذي يتمكن الإنسان من خلاله أن يخطئ وأن يصيب ويثاب، فالخطيئة ليست لصيقة بالطبيعة البشرية، ولا يمكن تحميل أي فرد وزر خطيئة غيره من البشر. **(من عمل صالحاً فلنفسه)** سورة فصلت 46.

ولذلك فكل ما يحتاجه الإنسان في هذا الإطار ليس ابن الإله الذي ينزل إلى الأرض فيصلب وينزف دمه ليغسل خطايا البشر، وإنما رسول يحمل الرسالة، كلام الإله للبشر، وهم أحرار بعد ذلك في التاريخ وفي الأداء. وهم لا يحتاجون إلى وساطة أو كهنوت لأنّ الله سبحانه وبفضل عدله لا يحتاج لوسيط. ورغم أن القرآن الكريم هو الكلمة المقدسة عند المسلمين فقد حرر الله سبحانه المسلمين من تبعات قد تفرز

نفسها عن ذلك التقديس فجعل النسخة المكتوبة التي في أيدينا هي نسخة مثيلة في المضمون النصي فحسب وهي (بصفتها كتاب مخطوط أو مطبوع نحمله) بعيدة عن أي من شبهات التقديس، لأنها أحكام وقوانين وعبر. وبذلك يتحرر المسلم أيضاً من تبعات وشبهات وبدع كانت قد تنتج عن تقديس النص القرآني. فالقرآن نفسه يمنح المسلمين الحرية ومن ذلك نجد نسخ القرآن في أية مكتبة وعلى الرفوف وعلى الجدران وفي الحلي الذهبية أحياناً.